« الزبير بن العوام »

رضي الله عنه

« لكل نبي حواري ، وحواري الزبير »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَمَ يَدعو عَشيرتَه الأقْربينَ إلى الإسْلامِ عَنْدمَا نَزَلَ عَلَيه الوحْى ﴿وأنذرْ عشيرتك الأقْربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَتوجَّهَ إلى دارِ عَبد المُطَلب فَوَجَد بها نفَراً من أهْله فقَال لهمَ :

ـ يَا فَاطمةَ بنتَ مُحمد ، يَا صَفيَةَ بنتَ عبدَ المُطَلب ، يَا بَنى عبدَ المَطلب ، إنِّى لا أمْلكُ لكُمْ منَ اللّه شَيْئاً ، سَلونى مَا شئتُم منْ مَالى .

وَجَلَسَ يَدعوهُم إلى الإسْلام ، وبَعَدمَا فَرَغَ النَبىُّ منْ كَلامه قالتْ صَفَيةُ بنتَ عبدَ المطَلب : أشْهدُ أن لاإلهَ إلا اللهَ وأنَّ مُحمَداً رَسَولُ الله وأمَنَّت صفيةُ عَمَّةُ النَبىَ ـ صَلىَ اللّهُ عَلَيه وسلم ـ .

وعَادتْ صَفيةُ إلىَ بيتها فوَجدتْ ابْنَها الزُّبيرُ جَالساً مَعَ أبى بكر الصِّديقَ ، وأبُوبكر يُحدِّثُهُ عَنْ دَعْوة النَّبى ويَدْعوهُ إلى الإيمان . فأخْبَرتْهُم صَفيةُ أنّها أسْلمتْ ، ودَعتْ ابنَهَا إلى الإسلام وكَانَ فَتىً الخَامسة عَشرةَمَنْ عُمره ، واسْتَجَابَ الزُّبيرُ لدعوة أمِّه وقَامَ مَعَ أبى بكر الصِّدِّيقَ إلى النَّبى ليُعلنَ بينَ يديْه إسلامَهُ .

وعلمَ عمُّ الزُّبير بإسْلامَه فَغَضبَ غَضَباً شَديداً ، وَأرادَ أنْ يُرْجعَ الزَبيرَ إلى دينَ قَوْمه ، فحاوَرَهُ وجادلهُ ولكنَ الفَتى لَمْ يَستجبْ ، فراحَ يُهدِّدُهُ ويَتوعَدهُ ، فَلَمْ يَعبأ الزُبيرُ به ، وتحدَّاهُ قَائلاً : لنْ أرجعَ عَنْ دينَ مُحمّد ، وافعَل مَا تَشاءُ .

فُجنَّ جُنونُ عَمّه وأخَذَهُ إلى بيته ، وفي إحدَى حُجُرات البَيت قَيّدَ الرجلُ الفَتَى بالحبَالَ ولَفّهُ في حَصَر وَعَلقهُ على الحَائط . وراحَ يُوقد تحتَهُ نَاراً ثمّ تَركَهُ وانْصَرفَ ، وهوَ يَظُنُّ أن الفَتَى سيَردُّهُ العذابُ عن دينْ مُحمّدَ .

وانْدلَعَتْ النَّارُ وتَصاعَدَ الدُّخانُ ليملأ الحجرةَ ويَكادُ الزُبيرُ يختَنقُ وتَسيلُ دُمُوعهُ وتُحرقُ أنفُه .

وعندمَا عَادَ عمُّ الزُبير إليه آخرَ النَّهارَ وجَدَه في حالة إعْيَاء شَديد ، فَقَدْ اسودَّ لَونهُ ، واحْمَرَّتْ عينَاهُ وهذَّه الجُوعُ وبَلَغَ به العَطَشُ مداهُ .

وَطَلبَ عمُّ الزُّبير منْه أنْ يَعودَ إلىَ دينَ قومه حتَى يَرحمُه فردَّ عَليه الفَتَى قَائلاً :

ـ لَنْ أعودَ إلى الكُفْر أبداً بَعَد إذْ أنقَذَنى اللّهُ منْهُ .

وَظَلَّ عَمُّ الزُبيرَ يُعذِّبُ الفَتَى ، فَلَمْ يَزْدهُ العَذَابُ إلا إصْراراً وصُمُوداً على دينْ محُمَّد ، فَلمَّا يَئسَ الرَّجُلُ منْ عَودْة الزُّبير لدينْ الآباء ، تَركَهُ يَأساً وجزَعاً .

وأصْبَحَ الزُّبيرُ بنُ العَوَّام قريباً منَ النَبى وَصَاحبُه أبى بكر ينْهلُ منْ علْم النَّبى ويَجدُ عَطْفاً منْ أبى بكر الصَّديق ، حَتى شَجَعَهُ ذَلكَ علَى أنْ يَطْلُبَ منْ أبى بَكر الزَواجَ منْ ابنته أسماءَ ولمْ يجدْ أبُوبَكر خَيراً لابنته منْ هَذَا الفَتى المؤمنُ العَنيدُ ، فَقَدْ كانَتْ إرادتُه قَوِيَّةً ، وكَانَ عَزْمهُ شَديداً وَحُبُّه للإسلام كَبيراً ، وإنْ كانَ قَليلَ المْال ، فرَحَّبَ به أبُوبَكر وزَوَّجَه أسماءَ ابنته ، تلك الفَتَاةُ المؤمنةُ الشُّجاعةُ .

* * *

كانَ الزُّبيرُ يُحبُّ زوجهُ أسماءَ حُبّاً جَماً ، وكَانتْ أسماءُ تُبادلُ زَوْجَها حُباً بحب وَعَطفاً بعطْف ، وفى بيت الزُّبير تعيشُ أسماءُ حياةً جَديدةً ، فهى تقومُ بخدمة زَوجها وبَيتها بنَفْسها ، تَعجنُ وتَخْبزُ وتكنسُ ، وتَستَقى الماءَ منَ النَّبع وتَعلفُ فَرَسَ زَوجها ، أمورٌ كانَ الخَدمُ يَقُومونَ بها فى بيت أبيها ، حتى ضَعُفَ جسْمها ، وشَحُبَ لَونُها ، فلَمَّا رأى أبُوبكر ذلكَ أرسَلَ إليها جاريةً كَفَتْهَا الكَثيرَ منْ أعْمَال البَيْت .

وذَاتَ يوم والزُّبيرُ فى بَيْته يَتَناول طَعامُهُ مَعَ زَوْجه ويُفكرُ فى رسُول الله ، إذْ سَمعَ هَمْساً خَارجَ الدَّار بأنَّ مُحمَّداً قُتلَ فَهَبَّ مَذْعُوراً واستَلَّ سَيْفهُ وخَرَجَ إلى الطَّريق عُرياناً لا يَستُر جَسَدهُ إلا سروالاً ، وراحَ يُهرولُ بينَ الدّيَار بَحْثاً عنَ القَاتل ، وليَتَأكدَ منْ هَذَا الكَلاَم .

وفى الطَّريقَ قَابَلَهُ النَّبىُ ، فَفَرحَ الزُّبيرُ وحَمَدَ اللهَ علَى أنْ النَّبىَ بخير ، فهدأ قَليلاً وتعجَّبَ النَّبىُ وهُوَ ينظُرُ إلى الزُّبير ، وسَأله :

ـ مالكَ يا زُبيرُ ؟

قالَ الزُبيرُ : سَمعتُ يا رسولَ اللّه أنّكَ قُتلتُ !

تبسَّمَ النَّبىُ وهُوَ يَرى الزُّبيرُ ثائراً وسألهُ : فمَا كُنتَ صَانعاً ؟

قَالَ الزُّبيرُ : أردتُ واللّه أن استعرضَ أهلَ مكةَ وأجرى دمَاءهُم كالأنهار لا أترُكُ أحَداً منْهم إلا قَتَلْتهُ حتى أقْتُلَهُم عَن آخرهم .

فَضَحكَ رَسولُ الله ، ودَعا لَهُ ولسفيه بخير .

وتَمْضى الدَّعوةُ الجديدةُ فى مكةَ بطيئةً وئيدةً ، فالمُشركونَ يتربَصونَ بالمُسلمينَ يُريدونَ القَضَاءَ عَلىَ الدِّين الجَديد ، وقُريشٌ تُذيقُ المسُلمينَ الضُّرَ والعَنَتَ حتَى لا ينتَشرَ الإسلامُ هنُالكَ شَكا كَثيرٌ منَ الصَّحَابة إلى النَّبى ما يلاقُونه من أهْليهم منْ ظُلْم وضُرٍّ .

فأشارَ عليهم النَّبىُ بالهجرة إلى الحبَشة ، فإنَّ فيهَا مَلكاً عَادلاً حتَى يَجعَلَ اللّهُ لهمُ فَرجاً ومَخْرَجاً .

وَهَاجَرَ الزُبيرُ إلى الحَبَشة مَعَ المهُاجرينَ ، ومكثَ معَ أصحاب النَّبى هناكَ مُدةً ثمَ عادَ إلى مكةَ شَوْقاً إلى النَّبى وإلى زَوجه ، ولكنه وجَدَ الأمرَ أكثرَ شدةً مِمَا كان قبلَ سَفره ، فهَاجَرَ إلى الحبَشة مرةً ثانيةً يعبدُ ربَّه ويصلّى للّه آمناً منْ كَيد المُشركينَ ، ويجلسُ الزُبيرُ ذاتَ يوم بَعْدَ أنْ فَرَغَ منْ صلاته يفكرُ فى رَّسولِ اللّه وقَدْ زَادَ حنينَه وشَوقه إليْه ، وراحَ يُحدّثُ نفسهَ قَائلاً :

ـ « أأعيشُ هُنَا فى الحبَشة سَليماً آمناً ، ورسُولُ اللَّه فى مكَة يُلاقى الأذَى منْ سادَة قُرَيش ؟! . . إن هذا لهُوَ الجَبينُ بعينه ! .

وَرَكبَ الزُّبيرُ البَحرَ عَائداً إلى مكَة ليكونَ بجانب رسول اللَّه ، ينهلُ من فَيْضه ويذودُ عنهُ بأسَ المُشركينَ .

* * *

وَيُهَاجرُ النَّبىُ وأبُوبكَر إلى المدَيْنَة ، ويُهَاجرُ الزُّبيرُ إليهَا معَ المُهَاجرينَ ، وتَلْحقَ به أسمَاءَ .

وفى المَدينَة يكونُ مُجتمَعاً جديداً للمُسلمينَ ، وتَسْرى شَائعةٌ هنَاكَ بأنَ اليَهُودَ سَحَروا المُسْلمينَ فلَنْ يُولَد لَهُمَ يَعدَ اليَوم ولَدٌ ، وصَدَّقَ بَعضُ النَّاس تلكَ الشَّائعة .

وذَاتَ يَوْم كانَ النَبىُ جَالساً مع أصَحْابَه عنْدمَا جاءتْهُ البُشرى بأن اللَّهُ رزقَ الزُّبيرَ وزَوْجُه أَسمَاءَ بمولود ففَرحَ النَّبىُ وفَرَحَ أصحابَهُ . ثُمَ جَاءتْ أسماءُ بعَدْ حين تَحملُ طفلَهَا إلى النَّبى بفرْحَة غامرة ، فَوضَعَه النَّبىُ فى حجْره مُستَبْشراً فَرحاً ، ودَعَا بتمرة فَمَضَغَهَا ثُمَّ حنَّكهُ بها ودَعَا لهُ بالبَركَة وسمَّاهُ عبدُ اللَّه ، فَكانَ عبدُ اللَّه بنَ الزُبير أولَ مَولود للمُسلمينَ فى المَدينَة .

وفى غَزوة بَدْر يَلتَقى المسْلمونَ وقَريشٌ فى قتَال عنيف ، وكانَ الزُّبيرُ بنُ العَوَّام يومَهَا مُبارزاً بارعاً ، لقَى الزُّبيرُ فى ميدَانَ القتَال رَجُلاً

مُشْركاً مُشْهُوراً بقَسوته وشدّته ويُدعَى عُبيدةُ بنَ سَعد بنَ العَاص ، وكَانَ هذَا الرَّجلُ مُدجَجَاً بالسِّلاَحِ والدّروعِ مِنْ قمة رأسه إلى قَدميه ، ولا يَبدوُ منهُ سوى العينَين .

وَبارزَ الزُبيرُ هذاَ الرَّجُلَ الحَصينَ ولكنهُ عَجَز عَنْ قتْله ، واخْتَارَ كيفَ يخترقُ هذه الدُّروعَ ؟!

واهتَدى الزُّبيرُ إلى حيْلة ، دَارَ الزُّبيرُ حَوَل هذا الرُّجل الحَصين وَتَحَّينَ الفُرصةَ ليُباغتهُ ، وكَان مَعَ الزُّبير عَنْزَةٌ ، وَهى رُمْحٌ قصيرٌ ، وَكَانَ قَد أتَى بها منْ الحَبشَة عَنْدمَا كان مُهاجراً إليْهَا ، وعَلَى حين غرة طَعنَ الزُّبيرُ الرَّجلَ الحصَينَ عُبيدةَ بن سَعيد فى عينيه بالعَنَزَة ، فاخترقتْ عينُه ووَصَلتْ إلى مُؤخرَة رأسه ، وَصَرخَ الرَّجلُ صَرخَةً مُوجعةً ، ووقعَ عَلى الأرض فاقدَ الوَعى ، فانقضَّ عليه الزبيُر وأمسكَ بالعنَزة ليجعلها من عينه ، ولَمْ تَخرْج إلا بعدَ أن وَقَفَ الزُّبيرُ على بَطنَ الرَّجلِ وجَذبَها بشدَّة ، فكَانَتْ مخضبةً بدماء هذا المُشرك العَنيد .

وانتهتْ المعركةُ بفوز المُسلمينَ وفرار المشركينَ ، وسَمَعَ النَّبىُ بقصَة العَنَزة التى قاتَلَ بها الزُّبيرُ ، فسُرَّ بَها وطَلبهَا من الزُّبير ، فأعطَاها الزُّبيرُ للنَّبى وكانت تذكاراً عَزيزاً لمعركة باسلة . وظَلَّ هذا الرُّمحُ الصّغيرُ ببيت النَّبى حتَى ماتَ رسولُ اللَّه صَلَّى اللّهُ عليه وسلم . فتوارثها من

بعده عمر بنَ الخَطَّاب ثمَّ عُثْمَان ثمّ علىٌّ بن أبى طالب ثمَّ عَبْدُ الله بنَ الزُّبير .

وَفى غزوة أحد ينهزمُ الْمسلمونَ بسبب مخالفة الرُّماة أمرَ النَّبىُّ ، وانقلبَ جيشُ قُريشٍ راجعاً إلى مكةَ بَعَد فوزه وينتدبُ النَبىُّ الزُّبيرَ بن العَوَّام وأبا بكر الصِّدِّيق لتعقب جيشَ قريش ومطاردته بعد انتهاء المعركة حتَى لا يُفكروا فى الرُّجوع إلى المدينة واستئناف القتَال وقَادَ أبُوبكرٍ والزُّبير سبعينَ رجلاً منَ الْمسلمينَ فى مُطاردة المشركينَ لكى يوهموهم بأنَّ الرسولَ قادمٌ ليشنَّ حرباً عليهم ، فأسرعتْ قريشٌ فى سَيْرها إلى مكةَ .

* * *

كانَ الزُّبيرُ يُحبُ الجلوسَ إلى رسول اللَّه ، وذاتَ يوم أحبَ رسولُ الله أنْ ينامَ وكَانَ الزبيرُ بجانبه ، وَغَلبَ النُّعاسُ عيْنى النَبى ، وكَان الذُّبابُ يومَها كثيراً ، فَراحَ الزُّبيرُ يَذبُ عن وجه النَّبى ويدفعُ عنه الذبابَ حتَى استيقظَ رسولُ اللَّه ، ورأى الزُّبيرَ بجَانبه ، فقالَ لَهُ :

ـ يا أبا عبدَ الله ، لمَ تَزَل ؟!

فقَال الزُّبيرُ : لَمْ أزل بأبى أنتَ وأمُى .

فَرحَ النَبىُّ وقالَ : هذا جبريلُ يُقرؤكَ السَّلامَ ويقولُ لكَ أنَا معكَ يومَ القيامة حَتى أذُبَ عَنْ وجهكَ شَررَ جَهنَّم .

وسُرَّ الزُّبيرُ بهذا الكلامِ سُروراً عظيماً ، ثمَّ بَشَرهُ النَّبىُ بالجنَة .

فطارَ فَرحاً وانْطَلقَ إلى زوجه أسماءَ بنت أبى بكرٍ ينقلُ إليها هذه البُشرى ، وَهى تُبَاركُه وتُهنئهُ .

وَتَمْضى الأيامُ ، والإسلامُ ينتَشُر فى البَلاد ، والمُسلمونَ تَقْوَى أواصُر الحُبِّ بينهم ، وذاتَ يوم ذَهَبَ النَّبىُ صَلَّى اللهُ عليه وسلم إلى بَنى غَنَم وكَان الزُّبيرُ معهُ ، فَلمّا رآهُم علىُّ بن أبى طالب ـ وكان هُناكَ ـ تهلَّل وَجْهه فَرحاً بلقاء النَّبى ، وأخَذَ يُحيى النَّبىَ ويُرحبُ به ضَاحكاً مُستبْشراً ، والنّبىُ يَردُّ عليه التَّحيةَ باسماً أيضاً ، ورَأىَ الزُّبيرَ ذلكَ فتحركتْ فى نفسه الغَيرة نحو علىٍّ بن أبى طالبٍ ، وَقَال للنَّبى :

ـ لا يَدَعُ ابن أبى طالب زَهْوهُ !

فَنَظَرَ النَّبىُ إلى الزُّبيرِ مُعاتباً وقال : أتحبُّ علياً يا زُبيرُ ؟

فقَالَ الزُبيرُ : والله إنى لأحبهُ .

فقَالَ النّبىُ : إنه ليس به زَهْوٌ ، ولتقاتلنّهُ وأنتَ لهُ ظَالمٌ .

وهُنَا جَعَل الزُّبيرُ منْ كَلمة النّبى صلى اللّه عليه وسلم ، ودَهشَ ثم راحَ يسألُ نفسه فى ذُهُول :

ـ إنَّ النَّبى لا ينطقُ عنْ الهَوَى ، أحقاً سيأتى يومٌ وأقاتلُ فيه علياً ويكونُ هَو مُحقاً وأكونُ له ظَالماً ؟! . . كيفَ ونحنُ إخوةٌ فى الإسلامِ ولا أحملُ له فى قلبى إلا المَودَّةَ والحُبَّ .

وعَادَ الزُّبيرُ إلى دَاره قلقاً أرقاً حزيناً ، يُفكِّرُ فى كلامِ رسولِ الله له ويُناجى ربَهُ أن يتغمّدهُ بوافرِ رحمته .

* * *

كانَ الزُّبيرُ بنَ العوامِ بطلاً شُجَاعاً لا يَهابُ المَوتَ ، ولا يَخَافُ الأعداءَ ، خَرجَ مَعَ جيشِ المُسلمينَ لقتالَ الرُّوم فى مَوقعة اليَرموك ، واصطحبَ معهُ ابنَه عبدَ اللَّه حَتى يُعوِّدَه خَوضَ المعَارك ويُعلمَهُ فنُونَ الحَرب .

وكانَ جيشُ الرُّوم فى هذه المعَركة هَائلاً والمُسْلمونُ يُحاولونَ اختراقَ الصُّفوف ، وزَعزعةَ جُنودِ الرُّومِ وتفرقت مجموعةٌ من الفُرسانِ المسُلمينَ وقالوا للزُّبير :

يا زُبيرُ ، ألا تهجم ، فنَهجَم مَعَكَ .

فقَالَ الزُّبيرُ : نعم ، هَيّا بنَا .

وانطلقَ الزُّبيرُ كالشِّهاب يَحملُ ابنَّه خَلفهُ عَلىَ فَرسه ، ومَعهُ جَماعةٌ منَ الفُرسان ، وعَنْدما واجَهوا صُفوفَ الرّوم ورأوا الجيشَ الهائلَ العَدد يقفُ صَامداً كالجبل ، أحجموا ، وامتلأتْ قلوبُهم رُعباً وفَزعاً . وتعَجَّبَ الزُّبيرُ من إحجام زُملائه الفُرسان وتخلفهم عنه فتركَهُم ومَضى وحَدهُ يخترقُ صُفوفَ الرومِ مُصوِّباً رُمحَه ، وشاهراً

سَيْفهُ حتَى قَتَل منهم عدداً كبيراً ثمَ عادَ إلى مكانه مُسرعاً وَرَأَتْهُ جَمَاعةٌ أخرى من الفُرسان المُسلمينَ ، فَتَشجّعوا وَقَالوا لَه :

يا زُبيرُ ، اهْجم مَرةً أخْرى ، ونَحن نَهْجم مَعَكَ .

فَرَدَّ عَليْهِمْ قَائلاً : إنكُم لا تَثْبُتونَ .

فقالوا بحماس : سَنثبتُ إنْ شَاءَ اللهُ .

وانْطَلَق الزُّبيرُ بنَ العَوَّام وَخَلْفُه ابنُه عَبَد اللّه عَلَى فَرَسه ، ومن حولَه الفُرسَان الشُجْعَان ، حَتى إذا وَاجَهوا صُنُوفَ الرُوم ، أحَجَم أصْحَابَه وَخَافُوا فَتركهم وَتَقَدَّم هُو بفَرَسه يَخْتَرق الصُفُوفَ ، وَيَزُلزلُ الجُنُودَ ، وَيُقَاتلُ بسَيفه وَرُمحه بُروح مَن يَطلب الشَهادة فى سَبيل اللّه ، ثُم عَاد إلى مكَانه وَقَدْ أصَابَته بَعَضَ الجراح .

وَتَمْضى الأيامُ وينتَقلُ رسولُ اللّه إلى الرَّفيق الأعْلى ، ثمّ يَلى الخلافَةَ أبُوبَكر الصدِّيَقَ ثَم عُمَرَ بنَ الخطَّاب ، وَفى خلافة عُثمَان بنَ عَفَّان تحَدُث بَعَضَ الأمُور تكونُ بَدَايَةَ الفتْنَة بَينَ المُسْلمينَ .

كَانَ عَبْدُ اللَّه بنَ أبى السَّرح هُو عَامل عثمَان بَن عَفَّان عَلَى مصْرَ ، وَذَاتَ يْوم دَخلَ عَلَية جَمَاعةً منْ النّاس فى أمْر مَنَ الأمُور فَرَدَهُم رَدّاً مُخْزياً وأمَّر بضَربهم فخَرجوا من عنْده ناقمينَ وَذَهَبوا إلى المَدينَة بَعَد أن تجَمَّعَ مَعَهم وَفْدٌ من المصْريين ودخلوا عَلى عثمَان بن عفَان أمَير المُؤمنين وَحكوا له ما حَدثَ منْ عَامله عبد اللّه بن أبى السَّرح ، وَطَلَبُوا

عَزلهُ ، فأرْسَل عَثمَانُ إلىَ المصَريين وطَلب منَهم أن يَختَاروا أحَداً مَكانَه فأختَاروا مُحَمد بن أبى بكرٍ .

كَتَبَ عُثمانُ عَهدهُ ووَلىَ مُحَمد بن أبى بكرٍ عَلَى مصْر ، وأمَر الوفَد أن يعَودوا إلى مصْرَ فانصرفَ القومُ مَشكورينَ وفى الطريق لَمحَ الوَفدُ غُلاماً يَمرُّ عليهم وينطلقُ مُسرعاً ، وكَانوا قد سَاروا ثلاثَةَ أيام . فارتابَ القَومُ وأسْرَعوا خلفهُ وأدركوهُ . ثمَّ سألوه : مَنْ أنْتَ يَا فَتىَ ، ومَا هى وَجهتكَ ؟

وقَال الفَتَى : أنا غُلامُ أميرُ المؤمنينَ ، وَجَّهنى إلى عامله فى مصَر

فَقَالوا له مُشيرين إلى محمدٍ بن أبى بكرٍ هذا عَامِلُ مِصْرَ الجديد .

فَقَال : ليسَ هذاَ أريدُ .

فقالوا : وبماذا أرسلكَ أميرُ المؤمنين ؟

قال : برسالةٍ .

فسألوه : أينَ هىَ ؟

فامتَنَع عن إخرَاجها .

فأحاطوا به ، وفَتَّشُوهُ ، ووَجَدوا الرِّسَالةَ .

وعَنْدمَا قَرأهَا مُحمدٌ بن أبى بكر على أصحابه فَزَعَ ودَهَشَ ، كانَ

مكتوباً فيها أمرٌ منْ عثمانَ إلى عبد الله بن أبي السَّرحِ بأن يقْتُلَ مُحمَّداً بن أبي بكرٍ وأصحابَهُ إذا رَجَعوا إليه .

وغَضِبَ محمَّدُ بن أبي بكر وأصحابهَ ، وعادَوا إلى المدينة وَهُم مُصممونَ علىَ قَتْل عُثْمَان انتقاماً ، والتَقى وْفدٌ منَ هَؤلاء بعُثْمَانَ بن عفان وقَصُّوا عليه حكايَة الرِّسَالة والغُلامُ فأقسَمَ عُثْمَانَ أنَّه مَا كتَبَ الرِّسَالَةَ ، ولاَ أمرَ بكتابتها ، ولا يَعْلَمُ شَيئاً عنَها فسألوه : ولكنَّ الغُلامَ غُلامَكَ ، والكتَابَ كتَابُك ، والجَمَلَ الذىَ كانَ يركَبُه جَملُكَ .

فَقَالَ : الكتابُ كُتبَ بغيرِ أمْرى ، والغُلامُ ذَهبَ بغير إذنى ، والجَملُ أخذَ بغيرِ علْمى .

فقَالُوا : ما أنت إلا صَادقٌ أو كَاذبٌ ، فإنْ كنتَ كَاذباً فقد استحققتَ الخَلْعَ لَمَّا أمرتَ به منْ سَفْك دمائنا بغير حَق ، وإن كنتَ صَادقاً فقَدْ استحققتَ أن تُخْلعَ لضَعْفكَ وَعَفلتكَ وخبث بطانتكَ .

وانصرفَ القَومُ وقَد أنذروهُ بالحَرب إن لمْ يترك الخلافَةَ ثمَّ حَاصروا بيتَهُ وَعَلمَ الزُّبير بن العوام بالأمر ، فأرسلَ ابنه عبدَ الله ليكونَ مع أمير المؤمنين عُثمَانَ لكنَّ القومَ دَخلُوا على عُثمَان وقَتَلوهُ ، فأسرعَ الزُّبيرُ عنْدما سَمعَ الخَبَرَ ، ولَطمَ ابنهُ عَبدُ اللَّه وهُو يسألهُ فى غَضب :

أينْ كُنتَ حينَ قُتلَ أميرُ المؤمنينَ ؟

فقالَ : كُنتُ معه يا أبى استمعُ إليه وهو يقرأ القرآن ، وقد أمَرَنى أنْ آمرَ أهلَ البيت بالانصراف . فلَمَّا خَرجْتُ من عنْده وكنتُ آخَر مَنْ معهُ ، سَمعتُ أنّه قُتلَ وكَانَتْ السّيدةُ عائشةُ ـ رضىَ اللَّهُ عنها بمكةَ حينَ قُتلَ عُثْمَانُ ، وَعنْدَما جَاءَها نبأ قَتْل عُثمَانَ واتفَاق النَّاس على عَلىَّ بن أبى طالب خليفةً للمُسلمينَ منْ بَعْده ، غَضبَتْ وقَالتْ : قُتل واللّه عُثمَان مَظْلوماً ، واللّه لأطلبنَّ بدمه ثُمَّ نادتْ الزُّبير بن العَوام ، وطلحةَ ابنَ عُبيد اللّه ، ومُحمَّداً بن أبى بكرٍ واتفَقُوا على أن يَخرجُوا للمُطَالبة بالثأر لدمِ عُثْمَانَ .

وَخَرَجَتْ السيدةُ عائشةُ راكبةً عَلى جَمل ومنْ حَوْلها كثيرٌ من الصَّحابة مُتجهينَ إلى البَصرة وانَدلعتْ الفتنَةُ بينَ المُسلمينَ ، والتى بدأها عَبدُ اللَّه بن سَبأ اليَهودىّ الذى دخلَ فى الإسلام لا رَغبةً فى الإسلام وإنَّما لبَذر بُذور الفتْنة بينَ المُسلمينَ . وكانَ قَدْ استَقَّر به المقُامُ فى مصْرَ ، وأخَذ يُؤلبُ النّاسَ على عُثْمَانَ بنَ عَفَّان ، حَتى انْتَهَتْ المؤامرةُ بمقْتلِ عُثمانَ ، وَقيام حَرْب بينَ المُسلمينَ وبعَضهم .

وَتَمْضى الأيامُ سراعاً ، ويَخْرجُ الزُّبيرُ بنَ العَوَّام مَعَ جَيْش عَائشةَ المعُارضُ لخلافة الإمام علىٍّ والمطَالب بالثَّأر لدَم عُثْمَانَ . ويَلمحُ علىٌّ ابن أبى طالبٍ صَديقَهُ الزُّبير بن العَوَّامَ فى جَيْش عائشةَ فينادينه :

ـ ويَحْـكَ يا زُبيـرُ ، مَـا الذى أخْـرَجَكَ ؟ . . أتْذكـرُ يومَ لَقـيتُ رسولَ الله ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فى « بَنى غَنَم» فضَحَكَ النبىُ إلىَّ وَضَحَكتُ إليه وأنْتَ مَعهُ يَومئذ ، فَقلتَ أنَت للنَّبى :

ـ يا رَسُولَ اللَّه ، ما يَدْعُ علىّ زَهْوهُ !

فردَّ عليكَ النَّبىُ قَائلاً :

ـ ليْسَ به زهوٌ ، أتُحبُّهُ يا زُبيرُ ؟

فقَلتُ : إنِّى واللَّه لأحبهُ .

فَقَالَ لكَ : إنّكَ واللَّه ستُقاتلُه وأنْتَ لَه ظَالمٌ .

فقالَ الزُّبيرُ : استَغفرُ اللهَ ، والله لو ذَكرتَها ما خَرجْتُ .

فَقَال علىٌّ : يا زيدُ ارجعْ .

فقَالَ الزُّبيرُ : كـيفَ أرجعُ الآنَ ، وقَدْ التقتَ حَلَقتـا البطانِ ؟ هَذَا والله العَارُ الذَى لا يُغْسلُ !

فقَالَ له علىٌّ محُذراً :

ـ يا زُبيرُ ارجع بالعَارِ قبلَ أن تحَملَ العَارَ والنَّارَ .

فانَصرفَ الزُّبيرُ بنَ العوَّام ، وَخَرجَ مِنْ بين جُموع النّاس ، وركَبَ دابتَـهُ وانطلقَ حـتى أتى وَادى السِّبـاعِ ، فـرآهُ رجلٌ يدعَى « عَـمرو بن

جُرموز » فَتَعقَبهُ فلما نزلَ الزُّبيرُ عنَ دَابته للصّلاة . غَدر به الرَّجلُ وقتلهُ وَسَلبَ سَيفهُ .

وأسرعَ القَاتلُ إلى علىٍّ بنَ أبىَ طَالب يظنُّ أنّه يحملُ إليه بُشرى مَقتل الزُّبيرُ .

وَصَاحَ علىٌّ غَاضباً عِنْدَماً عَلمَ أنَّ ببَاب الخَيمة قَاتلُ الزُّبيرُ بنَ العَوَّام يستأذن وقالَ لخَادمه :

ـ بَشِّر قَاتلَ ابن صَفيّة بالنَّار .

وعَنْدَما أدخلوا على الإمامِ علىّ سيفَ الزُّبير ، قبَّلهُ وَهوُ يَبكى كَمَداً وَحُزناً، وقالَ :

ـ سَيفٌ طَالما واللَّه جَلاَ به صَاحبه الكَربَ عن رسَول اللَّه !

وَصَلَّى الإمامُ علىٌّ بن أبى طَالب علَى صَديقه الزُّبيرُ بنَ العَوَّام مَع شُهداء المعْركة، ووَدعَ قَبْرهُ حزيناً باكياً .

« رَضِىَ اللهُ تَعَالى عَنْ الزُّبيرُ بنَ العَوَّام »